75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ المجلد الخامس ـ العدد الثالث ١٣٩٦ـ١٩٧٦

الأدب عند بني أيوب

بقلم

ناظم رشيد

خلفت الدولة الايوبية الدولة الفاطمية في سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة ، فحكمت مصر والشام والجزيرة (أعلى ما بين النهرين) ، ودام حكمها الى سنة ثمان واربعين وستمائة للهجرة . وقد شهدت هذه الديار ابان حكم بني أيوب حركة علمية وادبية واسعة ، لبواعث واسباب ، منها ما يتعلق برجال هذه الدولة ، ومنها ما يتعلق بالظروف العامة في تلك الحقبة من الزمن ، فقد كان ملوك بني ايوب يحبون العلم والادب ، ويقدرون رجاله ، ويشجعون دارسيه ، فاكثروا من انشاء المدارس ، ووقفوا عليها وقفا هائلا ، وسعوا لتوفير الاساتذة لها من اقطار العالم الاسلامي ، حتى اصبح لكل واحد منهم مدرسة تعرف باسمه ، وانتجعت دمشق والقاهرة وفود الطلاب من كل مكان ، وتخرج في هذه المدارس الفقهاء والمحدثون على نظام الجملة(١) .

وشجع بنو ايوب المجالس الادبية ، فاذا نزل القاهرة شاعر دمشقي ، او نزل دمشق شاعر قاهري اجتمع الشعراء لديه وابقوه عندهم زمانا قبل ان يتمكن من الرجوع الى بلده ، فيتمتع الناس بادبه كما يستمتع هو بضيافتهم واكرامهم ، وقد اشار ابن خلكان الى ذلك في معرض حديثه عن ابن سناء الملك ، فقال : « واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس تجري بينهم فيها مذاكيات ومحاورات يروق سماعها . ودخل في ذلك الوقت الى مصر شرف الدين بن عنين ، فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على ارغد عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، ولولا خشية الاطالة لذكرت بعضها(٢) » .

لقد احب بنو ايوب اللغة العربية ، وتثقفوا بها ، لانها لغة الدين والعلم والسياسة ، وانفقوا الاموال بسخاء على العلماء والادباء ، لذلك اقبلوا عليهم من كل حدب وصوب ، يمدحونهم ويمجدون بطولاتهم في المعارك التي خاضوها ضد الفرنج . وبزّ السلطان صلاح الدين الايوبي ـ المؤسس الاول لهذه الدولة ـ كل السلاطين في الانفاق على العلم والفقه ومدارسهما ، وجمع بلاطه جمهرة من العلماء والشعراء والكتاب كالقاضي الفاضل ، وابن شداد القاضي ، والعماد الكاتب ، واسامة بن منقذ . وكان يتذوق الشعر ويهتز له ، ويستحسن جيده ، ويردده في مجالسه ، حتى قيل : « انه كان كثيرا ما ينشد قول ابي المنصور محمد بن الحسين بن احمد بن الحسين بن اسحاق الحميري ، وهو قوله :

وزارني طيف من اهوى على حذر
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت اوقظ من حولي به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتهيت وآمالي تخيل لي
نيل المنى فاستحالت غبطتي اسفا (٣)

وقيل : انه كان يعجبه قول نشو الملك ابي الحسن بن مفرج المعروف بابن المنجم ، المتوفى سنة عشرين وستمائة للهجرة، في خضاب الشيب ، ولقد احسن فيه :

وما خضب الناس البياض لقبحه
والبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب ، فسُوِّدت
على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا : فكان اذا قال « مات الشباب » يمسك لحيته (يريد لحيته) وينظر اليها ويقول : اي والله مات الشباب(٤) ! وقيل : ان السلطان صلاح الدين في اول ملكه كتب الى بعض اصحابه بدمشق هذين البيتين :

ايها الغائبون عنا وان كد
تم لقلبي بذكركم جيرانا

(١) للتفصيل في هذا ينظر خطط الشام ٤ : ٣٨ .
(٢) وفيات الاعيان ٥ : ١١٢ .
(٣) وفيات الاعيان ٦ : ٢٠٦ ، الغيث المسجم ١ : ١٤٦ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٥٦ ، شفاء القلوب ٥١ب .
(٤) الخريدة ـ قسم شعراء مصر ١ : ١٦٨ ، وفيات الاعيان ٦ : ٢٠٧ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٦٧ .

انني مـــذ فقـــدتكم لاراكـــم
بعيـــون الضـــمير عنـــدي عيانا (٥)

وانشده احد الشعراء شعرا قال فيه :

الله اكبـر جـاء القـوس باربهـــا
ورام اســـهم ديـــن الله راميهـــا

فاعطاه الف دينار(٦) . وانشده اللغوي المصري الشاعر احمد بن علي قصيده طويلة فوصله عليها بخمسمائة دينار (٧) . ومدحه سعادة الاعمى بقصيدة اثابه عليها بالف دينار مـــن التبر(٨) . ومن الشعراء الذين نالوا عطاء السلطان صلاح‌الدين الايوبي ، الهدّب بن اسعد الموصلي المتوفى سنة اثنتين‌وستمائة للهجرة ، « وكان غزير الفضل ، وافر العلم ، وكان السلطان كلما عبر حمص امر له بمائة دينار مصرية وخلعة وعمامة ، فمما مدح السلطان به قصيدة مستحسنة اولها :

امـــا وجفونك المرضـــى الصحـــاح
وسـكرة مقلتيـــك وانـــت صـــاحي
ومـــا في فيـــك من بـــرد وشـــهد
وفي خـــديك مـــن ورد وراح
لقد اصبحت في العشـــاق فـــردا
كمـــا اصبحت فردا في المـــلاح(٩)

وهذا شاعر آخر ، وهو عرقلة الدمشقي المتوفى سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة ، الذي اشتهر بحبه للايوبيين ، وعده صلاح‌الدين ذات ليلة في احد مجالسه بدمشق انه ان ملك مصر اعطاه الف دينار ، وعندما تملك صلاح‌الدين مصر وفى بوعده ، فاعطاه من خاصته ما عليه ، واخذ من اخوته مثلها(١٠) .

ومدح السلطان صلاح‌الدين الايوبي فحول شعراء عصره ، منهم القاضي الاعز ابن فلاقس (ت ٥٦٧هـ) والعماد الكاتب (ت ٥٩٧هـ) ، وابن الساعاتي (ت ٦٠٤هـ) ، وحكيم الزمان عبدالمنعم الجلياني (ت ٦٠٣ هـ) ، وهو شاعر اندلسي رحل الى المشرق واقام بها ، ولازم السلطان صلاح‌الدين وقتا طويلا ، وكرس معظم شعره على التغني بفتح بيت المقدس ، نذكر من ذلك مثلا قصيدته التي سماها « التحفة الجوهرية » ، والتي وجهها الى السلطان صلاح‌الدين بظاهر عكا ، وهو محاصـــر للافرنج ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة للهجرة ، ومطلعها :

رفاهيـــة الشـــهم اقتحـــام العظـــائم
طلابـــا لعـــز او فلابـــا لغنائم (١١)

ومدح فريق من شعراء العراق السلطان صلاح‌الـــدين ، منهم سبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٣هـ) ، الذي ارسل اليه عدة قصائد يهنئه بالفتوحات التي احرزها في بلاد الشام (١٢) . وكذلك هنا الشاعر نجم‌الدين‌محمد بن الحسن بن نبهان العراقي من اهل الحلة السلطان بقصيدة طويلة اولها :

(٥) الروضتين ١ : ٤١٠ ، مفرج الكروب ١ : ١٧٢ .
(٦) وفيات الاعيان ٦ : ٢١١ .
(٧) بغية الوعاة ١ : ٣٤١ .
(٨) الخريدة ـ قسم شعراء الشام ١ : ٤١٦ .
(٩) مضمار الحقائق ٤٤ ، الروضتين ٢ : ١٦ .
(١٠) الخريدة ـ قسم شعراء الشام ١ : ١٧٨ .
(١١) عيون الانباء ٢ : ١٥٧ .
(١٢) انظر ديوان سبط‌ابن‌التعاويذي ١٨ ، ٢٢ ، ١٠٨ ، ٤٢٠ .

هنيئـــا صـــلاح‌الدين بالفتـــح والنصر
ونيـــل الامـــاني الغرّ والفتكة البكـــر
وما حـــزت فيهـــا من فخار ومن عـــلا
وحسن ثنا يبقى الى آخـــر الدهر (١٣)

وهكذا كان صلاح‌الدين انشودة الشعراء في القرن السادس من الهجرة(١٤) ، « ولم يجتمع بباب احد من الملوك بعـــد سيف‌الدولة بن حمدان ما اجتمع ببابه ـ رحمه الله ـ وزاد على سيف‌الدولة في الحباء والفضل والعطاء (١٥) » .

وقد جرى الشعر على السنة كثير من ابناء الاسرة الايوبية، فهذا بوري بن ايوب ، وهو اصغر اخوة صلاح‌الدين ، كـــان شاعرا فذا ، موفور الذكاء ، فياض الشعور ، عذب اللفظ ، وله ديوان شعر حسن متوسط(١٦) ، فمن شعره :

ايـــا حامـــل الرمح الشبيه بقـــدّه
ويا شـــاهرا ســـيفا حكى لحظه عضبا
ضـــع الرمح واغمد ما ســـللت فربما
قتلت وما حاولت طعنـــا ولا ضربا(١٧)

وكان بوري يحب مصر ويفيد مصر ، ويفضل نيلها ومـــاءه على الفرات وماته اذ يقول :

شـــربت من الفـــرات ، ونيـــل مصـــر
احـــب الـــيّ من مـــاء الفـــرات
ولي في مصـــر من اصبو اليـــه
ومن في قـــربه ابـــدا حيـــاتي
ارى مـــا اشـــتهيه يفـــر منـــي
وما لا اشـــتهيه الـــي يأتـــي(١٨)

وقال في احد مماليكه ، وقد اقبل من جهة المغرب راكبـــا فرســـا اشـــهب :

اقبـــل مـــن اعشـــقه راكبـــا
من جـــانب الغـــرب عـــلى اشـــهب
فقلت : ســـبحانك يـــاذا العـــلا
اشـــرقت الشـــمس مـــن المغـــرب

قال ابن خلكان : وذكر العماد غير ذلك ايضا ، ولـــه اشياء حسنة ، وكانت ولادته في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة للهجرة ، وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة للهجرة ، على مدينة حلب

(١٣) الروضتين ٢ : ١٢ .
(١٤) ذكر الدكتور احمد احمد بدوي زهـــاء خمسين شاعرا مدحوا السلطان صلاح‌الدين ، ومراجع مدحهم (ينظـــر الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ٤٣٤-٤٣٧) .
(١٥) زبدة الحلب في تاريخ حلب ٣ : ١٢٥ .
(١٦) مرآة الزمان ٨ : ٣٧٨ ، وفيات الاعيان ١ : ٢٦١ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٩٦ ، شفاء القلوب ١٣آ ، شذرات الذهب ٤ : ٢٤٥ ، كشف الظنون ١ : ٢٨٠ ، مجلـــة الثقافة المصرية العدد ١٣٠ حزيران ١٩٤١ مقال للدكتور جمال الدين الشيال بعنوان « شاعر من البيت الايوبي يموت في سن الشباب » .
(١٧) وفيات الاعيان ١ : ٢٦٠ ، اعلام النبلاء ٢ : ١٣٤ .
(١٨) مرآة الزمان ٨ : ٣٧٨ ، شفاء القلوب ١٣ ب .

من جراحة اصابته عليها لما حاصرها اخوه السلطان صلاح‌الدين (١٩) » .

اما الملك توران شاه ، وهو اكبر اخوة صلاح‌الدين (ت ٥٧٦هـ) ، فقد كان اديبا شاعرا ، « وكان القاضي الفاضل يكتب اليه الرسائل الفائقة ، ويودعها شرح الاشواق ، من ذلك ابيات مشهورة ذكرها ضمن كتاب وهي :

لا تهجرن مما اتيت فانه
صدر لاسرار الصبابة ينفث
اما فراقك واللقاء فان ذا
منه اموت وذاك منه ابعث
حلف الزمان على تفرق شملنا
فمتى يرق لنا الزمان ويحنث ؟
حول المضاجع كتبكم فكانني
ملسوعكم وهي الرقاة النفث(٢٠)

وكان الملك الافضل علي بن السلطان صلاح‌الدين (ت٦٢٢هـ) شاعرا فاضلا ، حسن الحفظ ، ومن شعره :

اما آن للسعد الذي انا طالب
لادراكه يوما يرى وهو طالبي
ترى هل يريني الدهر ايدي شيعتي
تمكن يوما من نواصي النواصب(٢١)

وكان داود بن يوسف (ت ٦٣٢هـ) فاضلا واديبا وشاعرا مجيدا(٢٢) ، واشتهر من بني ايوب الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي عمر صاحب حماة (ت ٦١٧هـ) ، « فقد جمع من الكتب ما لا يزيد عليه ، وكان في خدمته ما يناهز مائتي متمم من الفقهاء والادباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب ، وصنف من الكتب «مضمار الحقائق وسر الخلائق»(٢٣)، وهو مؤلف نفيس يدل على فضله ولم يسبق الى مثله ، وله كتاب « طبقات الشعراء » وهو في عشر مجلدات ، ومن شعره :

سحا الدموع فان القوم قد بانوا
واقفر الصبر لما اقفر البان
واسعداني بدمع بعد بينهم
فالشان لما ناوا عني له شان
لا تبعثوا في نسيم الريح نشركم
فانني من نسيم الريح غيران
سقاهم الغيث من قبلي كاظمة
سحا وروى ثراهم اينما كانوا(٢٤)

وكان ابوه تقي عمر (ت ٥٨٧ هـ) شاعرا فصيحا ومن شعره :

يا ناظريه ترفقا
ما في الدورى لكما مبارز

هبكم حجبتم ان ارا
ه فهل لقلب الصب حاجز ؟ (٢٥)

وكان الناصر داود بن عيسى (ت٦٥٦هـ) اديبا وله ديوان شعر (٢٦) ، « وكان معتنيا بتحصيل الكتب النفيسة ، ووفد عليه الشاعر راجح بن اسماعيل الحلي ومدحه ، فوصل اليه منه ما يزيد على اربعين الف درهم ، واعطاه على قصيدة اخرى الف دينار ، ومن شعر الناصر داود :

لو عاينت عيناك حسن معذبي
ما لمتني ، ولكنت اول من عذر
عين الرشا ، قدّ القنا ، ردف النقا
شعر الدجى، شمس الضحى، وجه القمر (٢٧)

وله ايضا :

عيون عن السحر المبين تبين
لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض ، وهي سود ، فرندها
ذبول فتور والجفون جفون
اذا ما رات قلبا خليا من الهوى
تقول له : كن مغرما فيكون (٢٨)

وكان ابوه السلطان شرف‌الدين عيسى بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب (ت ٦٢٤ هـ) عالما فقيها نحويا لغويا شاعرا ، « وكان يحب الفقهاء ويحرضهم على الاشتغال ، ويقول : من حفظ « الجامع الكبير » اعطيته مائة دينار ، ومن حفظ « الايضاح » اعطيته مائتي دينار ، فحفظ الكتابين جماعة كبيرة ، ووفى لهم ، وكان عنده من الفضلاء لايفارقونه سفرا ولا حضرا(٢٩) » ، ومن مؤلفاته التي وصلت الينا « السهم المصيب في الرد على الخطيب (٣٠) » ، ومن شعره الذي يخاطب فيه اباه الملك العادل :

اروي رماحك من دماء عداكا
وانهب بخيلك من اطاع سواكا
واركب خيولا كالسعالي شُزَّبا
واضرب بسيفك من يشق عصاكا
وسر الغداة الى العداة مبادرا
بالضرب في هام العدو دراكا
فالعز في نصب الخيام على العدا
تردي الطغاة وتدفع الملاكا
والنصر مقرون بهمتك التي
قد اصبحت فوق السّماك سماكا
فاذا عزمت وجدت من هو طائع
واذا نهضت وجدت من يخشاكا

---

(١٩) وفيات الاعيان ١ : ٢٦١ .
(٢٠) وفيات الاعيان ١ : ٢٧٣ ، شفاء القلوب ١٢ ب .
(٢١) السلوك ١ : ٢١٧ .
(٢٢) شذرات الذهب ٥ : ١٤٨ .
(٢٣) نشر جزء منه الدكتور حسن حبشي ، وطبعه بمطبعة دار الهنا في القاهرة ١٩٦٨ .
(٢٤) فوات الوفيات ٢ : ٤٩٦ .
(٢٥) النجوم الزاهرة ٦ : ١١٤ .
(٢٦) توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٣ ــ ادب .
(٢٧) فوات الوفيات ١ : ٣١٢ .
(٢٨) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٥٢ ، تاريخ ابي‌الفداء ٣ : ١٩٥ ، تاريخ ابن الوردي ٢ : ٢٨٤ .
(٢٩) شفاء القلوب ٧٤ ب .
(٣٠) وقف على تاريخ بغداد للخطيب البغدادي فوجد فيه مطاعن على ابي حنيفة فرده بهذا الكتاب (طبع بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢) .

والنصر في الاعداء يوم كريهة
احلى من الكاس الذي رواكا (٣١)

وكان الملك الاشرف موسى بن ابي بكر بن ايوب (ت٦٣٥هـ) شاعرا ، ومن شعره :

افدي قمرا تحار فيه الصفة
يسخو بدمي وهو امين ثقة
ماذا عجب يحفظ مالي ويرى
روحي تلفت به ولا يلتفت (٣٢)

اما الملك الكامل محمد بن العادل ابي بكر بن ايوب (ت ٦٣٥ هـ) فقط كان « عظيم القدر ، جميل الذكر ، محبا للعلماء ، متمسكا بالسنة ، حسن الاعتقاد ، معاشرا لارباب الفضائل ، حازما في اموره ، لا يضع الشيء الا في موضعه من اسراف ولا اقتار،وكانبيتعنده كلليلةجمعة جماعة منالفضلاء يشاركهم في مباحثهم ، ويسالهم عن المواضع المشكلة في كل فن ، وهو معهم كواحد منهم ، وكان عالما وله شعر حسن ، واشتغال في العلم (٣٣) » ، ومن شعره قوله :

اذا تحققتم ما عند صاحبكم
من الغرام ، فذاك القدر يكفيه
انتم سكنتم فؤادي وهو منزلكم
وصاحب البيت ادرى بالذي فيه(٣٤)

ومن شعراء بني ايوب المشهورين عزالدين فروخ شاه (ت ٥٧٨هـ) ، وهو ابن اخي السلطان صلاحالدين ، قال سبط ابن الجوزي : « وكان فروخ شاه شاعرا فصيحا ، وله اشعار كثيرة مدونة ، ومن شعره في وصف دمشق :

دمشق سقاك الله صوب غمامة
فما غائب عنها لدي رشيد
عسى مسعد لي ان ابيت بارضها
على انني لو صح لي لسعيد

ومن شعره ايضا :

اذا شئت ان تعطي الامور حقوقها
وتوقع حكم العدل احسن موقعه
فلا تضع المعروف مع غير اهله
فظلمك وضع الشيء في غير موضعه(٣٥)

وكان ابنه الملك الامجد مجدالدين بهرام شاه (ت ٦٢٨هـ) شاعرا كبيرا ، واديبا فاضلا ، له ديوان شعر كبير(٣٦) ، واغلبه في التغزل . يقول الدكتور مصطفى جواد : « وهو في راينا اغزل شعراء الكرد في العربية ، لان من اعسر الوان الشعر واصعب معالجاته ان يكون ديوان برمته في الغزل او في الرثاء ، ولا اظن التقليد في الشعر يبلغ بالشاعر ان ينظم ديوانا تاما في الغزل او ديوانا كاملا في الرثاء ، على ان سيرة الامجد المعروفة لم تذكر لنا الانسان الذي بعثه على ذلك الغزل الطويل النفس ، على الضد من غزل ابن ابي ربيعة الموقوف على جمال النساء عامة ، وغزل العباس بن الاحنف المقصور على حبيبته « فوز » وان تعدد اسمها ووصفها ، فالملك الامجد كان للكرد كما كان العباس بن الاحنف للعرب ، غير ان فضل الامجد على العباس هو انه نظم بلغة العرب مع انه كان كردي الاصل ، فهو من مفاخر اللغة العربية في ادبها ، ومن مفاخر الكرد في شاعريته العربية ، وعلمه بغريب اللغة علم احاطة وسعة اطلاع على المعاني(٣٧) » . واليك نموذجا من شعره :

اعرفت من داء الصبابة شافيا ؟
هيهات ، لست ترى لدائك راقيا
لا ترج من بعد انقيادك للهوى
برءا ، وقد لبيت منه الداعيا
عزّ الدواء ، فليس تلقى بعدها
طبا لدائك في الغرام مداويا
ما هذه في الحب اول وقفة
تركتك مستعر الاضالع باكيا
فلق الوساد ، وقد تعرضت النوى
حيران تسال ارسما ومغانيا
تتبادر العبرات في عرصاتها
بدءا ، لقد اقرحت طرفا داميا
ياظبية الوادي ، نداء موله
ناداك من الم التفرق شاكيا
قد كان يكفيني هواك ، فما الذي
جلب البعاد ، ومن اباح جفائيا(٣٨)

ومن شعراء بني ايوب الملك المظفر غازي بن ابي بكر بن ايوب (ت ٦٤٥هـ) ، فمن نظمه :

ولما التقينا بعد بُعدٍ تجددت
دموعي الى ان كدت بالدمع اغرق
فقلت لها : ياعين هذا لقاؤنا
فقالت : السنا بعد ذا نتفرق (٣٩) ؟

وكذلك اشتهر من العائلة الايوبية الملك المؤيد اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ) ، ويعرف بابي الفداء ، وهو صاحب كتابي تقويم البلدان ، والمختصر في اخبار البشر ، ومن نظمه :

سرى نشر الصبا فعجبت منه
من الهجران كيف صبا اليا
وكيف الم بي من غير وعد
وفارقني ولم يعطف عليا

ومن بني ايوب المتاخرين الملك العادل سليمان بن غازي (ت ٨٢٧ هـ) ، يقول عنه السخاوي : « له فضائل ومكارم وادب وشعر واعتناء بالكتب والاداب ومن شعره :

---

(٣١) بدائع البدائه ٣٢١ .
(٣٢) الحوادث الجامعة ١٠٦ .
(٣٣) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٢٣ .
(٣٤) السلوك ١ : ٦٠
(٣٥) مرآة الزمان ٨ : ٣٧٢ .
(٣٦) حققته معتمدا اربع نسخ ، مع دراسة ، وحصلت به درجة الماجستير من جامعة بغداد سنة ١٩٧٢ .
(٣٧) مجلة الكتاب العراقية العدد ٢ تموز ١٩٥٨ مقال للدكتور مصطفى جواد بعنوان « اغزل شعراء الكرد في العربية » .
(٣٨) ديوان الملك الامجد ص ٧٩ .
(٣٩) مرآة الزمان ٨ : ٧٦٩ ، شفاء القلوب ٨٨ آ .
(٤٠) فوات الوفيات ١ : ٣٠ ، شفاء القلوب ١٢٥ آ

أربعـــان الشـــباب عليـــك منـــي
سـلام كلمـا هـــب النســيم
ســروري مــع زمانك قــد تناهى
وعنـدي بعـده وجـــد مقيـم
فلا برحـــت لياليـــك الفـــوادي
وبـــدر التـــمّ لي فيهـا نديـم
يفازلنـــي بغنـــج والمحيـــا
يضـــيء وثغـره در نظيـم(٤١)

ويقول صاحب شفاء القلوب : « وديوان الملك العادل مرتب على ستة أبواب ، الاول في المواعظ وفيه ثلاثة فصول ، الثاني في الاخوانيات وما يناسب شرخ الشباب وفيه فصلان ، الثالث في المراثي والعتاب وفيه ثلاثة فصول ، الرابع في المديح والغزل وفيه ثلاثة فصول ، الخامس في الخمريات وفيه فصـلان ، السادس في المداعبات وفيه فصل(٤٢) » وينقل من هذا الديوان عدة مقطوعات ، وموشحا اوله :

بالله يا بـــدر التمـــام
ويافـــريدا في الانـــام
ويارشـــا حلـــو الكـــلام
قـــد زاد في قلبـي هيـام

وكـان العادل سليمان ملكا على حصن كيفا ، وخلف بعده ابنه الملك المنصور أحمد (ت ٨٣٦ هـ) ، وكان فاضلا اديبا ، له ديوان شعر كبير يشتمل على نوائح في ابيه وغزل وزهديات وغير ذلك(٤٣) . ومن شعره :

بـــدا حبي وقـــد خضب اليدين
فاتلـــف مهجتـــي بالحاجبـــين
وبين النوم والجفـــن اختـــلاف
كما بين الـــذي اهـوى وبينـــي
ترفـق يا حبيـــب القلب واعطـف
لتنعـــم بالرضـــا عينـي بعينـــي
اذا رمـــت ســـلوا الـق قلبـــي
يجرجـــره الجمـــال بقـــائدين
وان اذنبـــت ذنبـــا يا غـــزالي
ارى لـك عنـــد قلبـي شـــافعين
يعنفنـي فـــؤادي كيـــف اســلو
مليحـــا ســاكنـــا في الناظـــرين
يذوب القلـــب مني حـــين يضـحي
شـــرودا للغـــرام محركـــين
فـــزدني يا حبيبي تلـــق اجـــرا
ودس فضـــلا على راسي وعينـــي

هذا قليل من كثير عن ملوك بني ايوب ممن قرضوا الشعر ، وعنوا بنظمه ، والقارىء لشعرهم لا يحس بانهم من غير العرب ، فقد صارت اللغة العربية لغتهم ، والثقافة الاسلامية ثقافتهم ، والشاعر منهم شاعرا كغيره من الشعراء .

(٤١) الضوء اللامع ٣ : ٢٦٨ .
(٤٢) شفاء القلوب ١٢٨ ب .
(٤٣) توجد نسخة من ديوانه في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٤٧٣٠ شعر .

ولابد من الاشارة الى العامل الثاني ـ وهو المهـم ـ في تنشيط الحركة الادبية في مدة حكم بني ايوب ، الا وهو الحروب الصليبية . فان هذه الحروب اثارت العواطف ، وبعثـت الشعراء الى القول ، والاجادة فيه ، وادت الى خلق بيئة كبيرة، وبخاصة في مصر والشام ، فكثر القول في الاستنجاد ، والحث والتحريض لاسترداد الوطن المغتصب ، وتمجيد البطـولات ، وتسجيل المعارك الكبرى ، فقد ادرك الشعراء مسؤوليتهم في هذه المرحلة العصيبة ، التي كانت بالنسبة للمسلمين مسالة حياة او موت ، فجندوا انفسهم الى جانب اخوانهم الذين حملوا السلاح ، وكان لهم الاثر الكبير في حث القواد والجنـود على تخليص البلاد من شر الافرنج . واليك بعض الامثلة عن اثر الشعر في نفوس القواد : فان الملك الكامل محمد بن الملك العادل ابي بكر ابن ايوب ، صاحب مصر والشام ، بعث بابيات من نظمه الى اخيه الملك الاشرف لما احتل الافرنج دمياط يستنجده عليهم فيقـول :

يامسعفي ان كنت حقـا مسـعفي
فارحـل بغـير تفنـد وتوقـف
واطـو المنـازل والديـار ولا تنخ
الا علـى بـاب المليـك الاشـرف
واحث فلوصـك مرقـلا او موجفـا
بتجشـم في سـيرها وتعسـف
قبـل يديه ـ لاعدمت ـ وقـل لـه
عنـي بحسـن تعطـف وتلطـف
ان تـات صـنوك عن قـريب تلقـه
ما بـين حـد مهنـد ومثقـف
او تبـط عـن انجـاده فلقـاؤه
يـوم القيامـة في عـراص الموقف(٤٤)

فكان لهذه الابيات اثر جميل في انجاد اخيه اياه ، وفي بلوغه مناه ، من دحر الافرنج وتحطيم جيشهم . ومن أثر الشعر ما يروى ان فروخ شاه ابلى بلاء عظيما في معركة دارت قرب بانياس سنة خمس وسبعين وخمسمائة للهجرة ، وانتصر فيها ، متاثرا بالشعر ، مدفوعا به ، فقد حكي انه قال : « ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي :

فان تكن الـدولات قسـما فانهـا
لمن يـرد المـوت الـزؤام تـؤول
ومن هـون الدنيـا على النفـس ساعة
وللبيـض في هـام الكمـاة صـليل

فهان الموت في عيني ، فالقيت نفسي فيه (٤٥) » .

وهكذا كانت الحروب الصليبية سببا في ازدياد ثروة الادب العربي ، وبخاصة الشعر ، الذي « لم يقتصر فرضه علـى الرجال فقرضته النساء (٤٦) » .

(٤٤) الحوادث الجامعة ١٠٧ ، السلوك ١ : ١٩٧ ، خطط المقريزي ٢ : ٣٧٦ .
(٤٥) الكامل لابن الاثير ١١ : ٤٥٦ ، سنا البرق الشامي ١ : ٣٣٠ .
(٤٦) مفرج الكروب ٢ : ٣٦ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٩٦ .

المراجـع

١ ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمدراغب بن محمود ابن هاشم الطباخ : المط العلمية ـ حلب ١٣٤٢هـ .

٢ ـ بدائع البدائة : علي بن ظافر الازدي . تحـ : محمد ابو الفضل ابراهيم . المط الفنية ـ القاهرة ١٩٧٠ .

٣ ـ بغية الوعاة : جلال‌الدين السيوطي . تحـ : محمد ابو الفضل ابراهيم . مط مصطفى الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٤.

٤ ـ تاريخ ابن الوردي : عمر بن الوردي . المط الحيدرية ـ النجـف ١٩٦٩ .

٥ ـ الحوادث الجامعة : عبدالرزاق بن الفوطي . تحـ : مصطفى جواد . مط الفرات ـ بغداد ١٣٥١هـ .

٦ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ قسم شعراء الشام : عمادالدين محمد بن محمد بن حامد . تحـ : د . شكري فيصل . مط المكتبة الهاشمية ـ دمشق ١٩٥٥ .

٧ ـ خطط الشام : محمد كرد علي . مط الترقي ـ دمشق ١٩٢٦ .

٨ ـ ديوان الملك الامجد : مجدالدين بهرام شاه الايوبي . تحـ : ناظم رشيد ، ١٩٧٣ ، رسالة مطبوعة على‌الرونيو .

٩ ـ الروضتين في اخبار الدولتين : عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي . مط وادي النيـل ـ القاهـرة ١٢٢٨٧ هـ .

١٠ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم . تحـ : د . سامي الدهان ـ المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٨ .

١١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : احمد بن المقريزي . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤ .

١٢ ـ سنا البرق الشامي : الفتح بن علي البنداري . تحـ : د . رمضان ششن . مط دار الكتـاب الجـديد ـ بيروت ١٩٧١ .

١٣ ـ شفاء القلوب في مناقب بني ايوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي . نسخة مكتبة جامعة القاهرة المصـورة ، الرقم ٢٤٠٣١ .

١٤ ـ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع : محمد بن عبدالرحمن السخاوي . مط مكتبة القدسي . القاهرة ١٣٥٤هـ .

١٥ ـ عيون الانباء : ابن ابي اصـيبعة . مط الاقبـال ـ بيروت ١٩٥٦ .

١٦ ـ الغيث المسجم : صلاح‌الدين الصفدي . المط الازهرية ، ١٣٠٥هـ .

١٧ ـ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي . مط السعادة ـ القـاهرة ١٩٥١ .

١٨ ـ المختصر في اخبار البشر : ابو الفداء عمادالدين اسماعيل بن أيوب . المط الحسينية القاهرة ١٣٢٥هـ .

١٩ ـ مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥١

٢٠ ـ مضمار الحقائق : محمد بن تقي‌الدين عمـر . تحـ : د . حسن حبشي . مط دار الهنا ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٢١ ـ مفرج الكروب في اخبار بني أيوب : ابن واصل . تحـ : د . جمال‌الدين الشيال . مط جامعة فـؤاد الاول ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٢٢ ـ النجوم الزاهرة : يوسف بن تغري بردى : مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٦ .

٢٣ ـ وفيات الاعيان : ابن خلكان . مط السعادة ـ مصـر ١٩٤٨ .